

## عِلْمُ الدِّفَاعِيَّاتِ

### المحاضرة ٨: اللغة التشابهيّة، الجزء ١

أ.ر.سي. سبرول

بَيْنَمَا نَتَابِعُ دِرَاسَتَنَا لِعِلْمِ الدِّفَاعِيَّاتِ، يُوجَدُ وَاحِدٌ مِنَ الشُّرُوطِ الْأَسَاسِيَّةِ لِلْمَعْرِفَةِ لَمْ نَتَنَاوَلْهُ بَعْدُ. سَبَقَ أَنْ ذَكَرْتُ أَرْبَعَةَ مَبَادِيءٍ، وَهِيَ: قَانُونُ عَدَمِ التَّنَاقُضِ، وَقَانُونُ السَّبَبِيَّةِ، وَالْمَوْثُوقِيَّةُ الْأَسَاسِيَّةُ لِلدِّرَاكِ الْحَسِّيِّ. تَنَاوَلْنَا هَذِهِ الثَّلَاثَةَ بِالْفِعْلِ. الْمَبْدَأُ الرَّابِعُ، كَمَا تَذَكَّرُونَ، هُوَ مَبْدَأُ الْإِسْتِخْدَامِ التَّشَابِهِيِّ لِلْعَةِ. رُبَّمَا هَذَا هُوَ الْمَبْدَأُ الْأَكْثَرُ غُمُوضًا بِالنِّسْبَةِ لِلشَّخْصِ الْعَادِيِّ الَّذِي يَتَعَامَلُ مَعَ الدِّفَاعِيَّاتِ فِي يَوْمِنَا هَذَا. وَلِذَا، سَأَحَاوِلُ الْيَوْمَ تَوْضِيحَ مَاهِيَّةِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بِرُمَّتِهَا.

تَذَكَّرُونَ أَنَّ هَذِهِ الْعَنَاصِرَ أَوْ الْمَبَادِيءَ هِيَ نِتَاجُ دِرَاسَتِنَا الْإِسْتِفْرَائِيَّةِ لِلِلْحَادِ، وَفَحْصِنَا لِمَنْ رَفَضُوا الْإِيمَانَ التَّقْلِيدِيَّ بِوُجُودِ اللَّهِ، وَإِصْغَائِنَا بِعِنَايَةٍ إِلَى الْحُجَجِ الَّتِي قُدِّمَتْ ضِدَّ الْإِيمَانِ الْيَهُودِيِّ-الْمَسِيحِيِّ. فَقَدْ أَشْرْتُ إِلَى وُجُودِ عَنَاصِرَ فِكْرِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ لَدَى نِقَادِ الْإِيمَانِ التَّقْلِيدِيِّ بِوُجُودِ اللَّهِ، مِثْلَ إِنْكَارِ قَانُونِ عَدَمِ التَّنَاقُضِ، أَوْ إِنْكَارِ السَّبَبِيَّةِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ. وَالْآنَ سَنَنْتَقِلُ إِلَى مَسْأَلَةِ الْعَةِ.

فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ، وَفِي الْفَلَسَفَةِ الْمُعَاصِرَةِ لِتِلْكَ الْفِتْرَةِ، شَهَدْنَا نَقْلَةً فِي الْفَلَسَفَةِ، مُتَّصِلَةً بِاللُّغَةِ الْبَشَرِيَّةِ. وَمَعَ تِلْكَ النَقْلَةِ فِي بُورَةِ التَّرْكِيزِ الْفَلَسَفِيَّةِ، أُثِيرَ جَدَلٌ يُعْرَفُ بِاسْمِ "جَدَلِ الْكَلَامِ عَنِ اللَّهِ". رُبَّمَا لَيْسَ هَذَا الْمُصْطَلَحُ مَأْلُوفًا لَدَيْكُمْ، لَكِنْ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي نَتَجَّتْ عَنْ جَدَلِ الْكَلَامِ عَنِ اللَّهِ هُوَ حَرَكَةٌ لَاهُوتِيَّةٌ تُسَمَّى "ثِيُونَاتُولُوجِي". هَذِهِ كَلِمَةٌ جَدِيدَةٌ عَلَيْكُمْ. رُبَّمَا لَمْ تَسْمَعُوا بِهَذَا الْمُصْطَلَحِ قَبْلًا. مَنْ مِنْكُمْ لَمْ يَسْمَعْ قَطُّ بِمُصْطَلَحِ "ثِيُونَاتُولُوجِي"؟ حَسَنًا، لَمْ يَسْمَعْ بِهِ أَحَدٌ. هَذِهِ كَلِمَةٌ مُتَمَقَّةٌ تُعَبَّرُ عَنْ مَوْتِ اللَّهِ.

مَنْ مِنْكُمْ سَمِعَ بِحَرَكَةِ "مَوْتِ اللَّهِ"؟ الْآنَ أَصَبَحَ ذَلِكَ مَأْلُوفًا بَعْضَ الشَّيْءِ. سَمِعْنَا فَلَاسَفَةً وَلاهُوتِيَّةً يُعْلِنُونَ مَوْتِ اللَّهِ فِي السِّتِينِيَّاتِ. وَوَرَاءَ حَرَكَةِ مَوْتِ اللَّهِ كَانَتْ تَكْمُنُ أَرْزَمَةٌ فِي فَلَاسَفَةِ الْعَةِ تَعُودُ جُذُورُهَا فِي الْأَسَاسِ إِلَى مَدْرَسَةِ فَلَاسَفِيَّةٍ ظَهَرَتْ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ، مَصْدَرُهَا بَرِيْطَانِيَا الْعُظْمَى، تُدْعَى الْوَضْعِيَّةُ الْمُنْطِقِيَّةُ. وَفِي الْوَضْعِيَّةِ الْمُنْطِقِيَّةِ، إِحْدَى الْفَرْضِيَّاتِ الْأَسَاسِيَّةِ هِيَ مَبْدَأُ دُعَى قَانُونِ التَّحَقُّقِ، أَوْ مَبْدَأُ التَّحَقُّقِ. نَعْلَمُ مَعْنَى التَّحَقُّقِ مِنَ الْأُمُورِ. فَالْفِعْلُ "يَتَحَقَّقُ" (to verify)، الَّذِي يَأْتِي مِنْ كَلِمَةِ "veritas" الَّتِي مَعْنَاهَا "حَقٌّ"، مَعْنَاهُ التَّأَكُّدُ مِنْ صِحَّةِ الشَّيْءِ، أَوْ إِثْبَاتِ صِحَّةِ الشَّيْءِ. فَإِذَا قُدِّمَتْ ادِّعَاءٌ دُونَ أَنْ أَدْعَمَهُ بِالْبَرَاهِينِ، يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّ صِحَّةَ ادِّعَائِي لَمْ تُثَبَّتْ بَعْدُ. وَإِذَا أَمَكَّنِي إِظْهَارُ صِحَّةِ ادِّعَائِي، أَكُونُ قَدْ أَثَبَّتُهُ.

وَمَبْدَأُ التَّحْقُقِ الْمُتَمَضَّنُ فِي الوُضْعِيَّةِ الْمُنْطَقِيَّةِ هُوَ كَالتَّالِي: "التَّصْرِيحَاتُ الوَاحِدَةُ الَّتِي تُحْسَبُ صَاحِبَةً هِيَ الَّتِي يُمَكِّنُ التَّحْقُقُ مِنْهَا تَجْرِبِيًّا". بِتَعْيِيرِ آخَرَ، التَّصْرِيحَاتُ الَّتِي يُمَكِّنُ إِثْبَاتَهَا تَجْرِبِيًّا هِيَ وَحْدَهَا التَّصْرِيحَاتُ الصَّاحِبَةُ. وَالتَّحْقُقُ مِنْ تَصْرِيحٍ مَا تَجْرِبِيًّا يَعْنِي إِثْبَاتُ صِحَّتِهِ بِالإِذْرَاكِ الحَسِّيِّ، أَيْ بِالنَّظَرِ وَالسَّمْعِ، إِلَى آخِرِهِ. إِذَا قُلْتَ لَكُمْ: "يُوجَدُ ذَهَبٌ فِي أَلَسْكَ"، فَالْوَسِيلَةُ الوَاحِدَةُ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ أَثْبِتَ بِهَا صِحَّةَ ذَلِكَ الإِدْعَاءِ هِيَ الذَّهَابُ إِلَى أَلَسْكَ وَالبَحْثُ عَنِ الذَّهَبِ. وَسَأَثْبِتُ عِلْمِيًّا، وَأَبْرَهُنُ تَجْرِبِيًّا، أَنَّهُ يُوجَدُ ذَهَبٌ هُنَاكَ، عِنْدَمَا أُعْثِرُ عَلَيْهِ وَأُرِيكُمْ إِيَّاهُ، لِتَرَوْهُ بِأَعْيُنِكُمْ، وَتَلْمِسُوهُ بِأَصَابِعِكُمْ، إِلَى آخِرِهِ. هَذَا مَا نَعْنِيهِ بِالتَّحْقُقِ التَّجْرِبِيِّ، أَيْ إِثْبَاتِ صِحَّةِ الشَّيْءِ عَنْ طَرِيقِ الحَوَاسِّ الحُمْسِ.

هَذَا المَبْدَأُ أَحَدَتِ تَأْثِيرًا كَبِيرًا فِي المُجْتَمَعِ الفَلَسْفِيِّ لِبَعْضِ الوُقُوفِ، إِلَى أَنْ لَاحَظَ أَحَدُهُمْ مَا كَانَ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ وَاضِحًا مِنْذُ البِدَايَةِ، وَهُوَ أَنَّهُ لَوْ كَانَتِ التَّصْرِيحَاتُ الصَّاحِبَةُ هِيَ فَقَطُ الَّتِي يُمَكِّنُ إِثْبَاتَهَا تَجْرِبِيًّا، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ قَانُونَ التَّحْقُقِ نَفْسَهُ لَيْسَ صَاحِبًا، لِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ التَّحْقُقُ مِنْ قَانُونَ التَّحْقُقِ تَجْرِبِيًّا. فَهُوَ مُجَرَّدُ فَرَضِيَّةٍ لَيْسَ لَهَا مُبَرَّرٌ. وَبِذَلِكَ، انْسَحَبَتِ هَذِهِ المَدْرَسَةُ الفِكْرِيَّةُ وَهِيَ تَجْرُ أَدْيَالِ الحَيَاةِ. لَكِنْ رَعَمَ هَذِهِ العَقَبَةُ، وَهَذَا الحِطْلُ الوَاضِحُ فِي مَبْدَأِ التَّحْقُقِ، ظَلَّتْ أَسْلِحَةً التَّقْدِيمِ مُصَوَّبَةً نَحْوَ الإِيمَانِ التَّقْلِيدِيِّ بِوُجُودِ اللهِ، مِنْ حَيْثُ لَعَنَ الكَلَامُ عَنِ اللهِ. وَقَالَ النُّقَادُ إِنَّ التَّصْرِيحَاتِ عَنِ اللهِ لَا يُمَكِّنُ إِثْبَاتَهَا عِلْمِيًّا بِأَيِّ حَالٍ، لِأَنَّ أَحَدَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى اللهُ، وَلَا يُمَكِّنُ إِخْضَاعُ اللهُ لِلتَّجَارِبِ، أَوْ لِلتَّحْلِيلِ المِخْبَرِيِّ. وَبِالتَّالِي، تَظَلُّ فِكْرَةُ اللهُ غَيْرَ قَابِلَةٍ لِلإِثْبَاتِ أَوْ التَّحْقُقِ. لَيْسَ هَذَا فَحَسْبُ، لَكِنَّهَا أَيْضًا غَيْرُ قَابِلَةٍ لِلتَّكْذِيبِ. هَذَا أَمْرٌ خَطِيرٌ.

يَشْعُرُ كَثِيرٌ مِنَ المُؤْمِنِينَ بِالرَّاحَةِ لِأَنَّ الأُمُورَ الَّتِي يَقُولُونَ إِنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِهَا لَا يُمَكِّنُ إِثْبَاتُ حَظْلًا. لَكِنَّ مُجَرَّدَ عَدَمِ التَّمَكُّنِ مِنْ إِثْبَاتِ شَيْءٍ مَا لَا يَعْنِي أَنَّهُ صَاحِبٌ. فَمَثَلًا، إِذَا قُلْتَ إِنِّي أَوْ مِنْ بِالأَشْبَاحِ، فَسَأَلَنِي أَحَدُهُمْ: "هَلْ رَأَيْتَ شَيْئًا مِنْ قَبْلُ؟" سَأَجِيبُ: "كَلَّا، لَكِنِّي أَوْ مِنْ بِوُجُودِهَا". "وَهَلْ لَدَيْنَا أَيُّ دَلِيلٍ عِلْمِيٍّ عَلَى وُجُودِ الأَشْبَاحِ؟" سَأَجِيبُ: "كَلَّا، لَكِنْ ثَمَّةَ سَبَبٍ لِذَلِكَ. فَالأَشْبَاحُ لَا تُحِبُّ العُلَمَاءَ. وَكُلَّمَا ظَهَرَ العُلَمَاءُ وَمَعَهُمْ أَيُّ نَوْعٍ مِنْ أَجْهَرَةِ القِيَّاسِ القَادِرَةِ عَلَى رِصْدِ وُجُودِ الأَشْبَاحِ، يَرِحَلُ الأَشْبَاحُ، لِأَنَّ جُزْءًا مِنْ طَبِيعَتِهِمْ كَأَشْبَاحِ هُوَ الهُرُوبُ مِنَ العُلَمَاءِ. وَلِهَذَا لَمْ يَتِمَكَّنِ العُلَمَاءُ قَطُّ مِنْ إِثْبَاتِ وُجُودِهَا". أَوْ الأَمْرُ أَشْبَهُ بِقَوْلِنَا إِنَّهُ يُوجَدُ بَشَرٌ مُصْنُوعُونَ مِنَ الجِبْنِ الأَخْضَرِ، يَعِيشُونَ عَلَى الجَانِبِ الأَخْرَ مِنَ القَمَرِ، وَلَدَيْهِمْ التَّوَعُّ دَاتُهُ مِنَ الحَسَاسِيَّةِ تُجَاهَ التِّلْسُكُوبِ. فَكُلَّمَا صَوَّبَ تِلْسُكُوبٌ نَحْوَهُمْ، يَهْرُبُونَ. وَلِهَذَا لَا تَرَاهُمْ أَبَدًا.

فَإِنْ افْتَرَضَ أَحَدُهُمْ مُعْتَقَدًا كَهَذَا، لَنْ يَسْتَطِيعَ إِثْبَاتُ صِحَّةِ فَرَضِيَّتِهِ، لَكِنْ أَيْضًا لَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ إِثْبَاتَ خَطِيئِهِ، لِأَنَّ اسْتِحَالَةَ تَكْذِيبِ هَذَا التَّصْرِيحِ مُدْجَّةٌ دَاخِلُ الفَرَضِيَّةِ. أَتَفْهَمُونَ ذَلِكَ؟ هَذَا مَا نُسَمِّيهِ بِالعُشِّ فِي المَجَالِ

التَّظَرِّيِّ لِلْفِكْرِ. إِذْنًا، نُدْرِكُ فِي الْفَلَسَفَةِ أَنَّ تَكْذِيبَ تَصْرِيحٍ مَا كَثِيرًا مَا يَكُونُ أَصْعَبَ جِدًّا مِنْ إِثْبَاتِ صِحَّتِهِ. لِنَرْجِعْ مَثَلًا إِلَى مِثَالِنَا عَنْ وُجُودِ الذَّهَبِ فِي الْأَسْكَاءِ. إِذَا قُلْتُمْ لَكُمْ: "يُوجَدُ ذَهَبٌ فِي الْأَسْكَاءِ، وَأَسْتَطِيعُ إِثْبَاتَ ذَلِكَ"، فَكُلُّ مَا عَلَيَّ فِعْلُهُ لِإِثْبَاتِ ذَلِكَ هُوَ الذَّهَابُ إِلَى الْأَسْكَاءِ، وَالْعُثُورُ عَلَى بَعْضِ الذَّهَبِ هُنَاكَ. وَعِنْدَيْدِي، أَكُونُ قَدْ أَثْبَتْتُ صِحَّةَ تَصْرِيحِي. لَكِنْ لِنَفْتَرِضْ أَنَّ أَحَدَهُمْ قَالَ: "لَا يُوجَدُ ذَهَبٌ فِي الْأَسْكَاءِ"، أَوْ عَلَى الْعَكْسِ، إِذَا حَاوَلَ أَحَدُهُمْ إِثْبَاتَ عَدَمِ وُجُودِ ذَهَبٍ فِي الْأَسْكَاءِ، أَيَّ أَرَادَ بِتَعْبِيرٍ آخَرَ تَكْذِيبَ ادِّعَائِي وُجُودِ ذَهَبٍ فِي الْأَسْكَاءِ، فَذَهَبَ إِلَى الْأَسْكَاءِ وَدَخَلَ أَوَّلَ مَدِينَةٍ هُنَاكَ، وَبَحَثَ حَوْلَهُ، فَلَمْ يَجِدْ أَيَّ ذَهَبٍ. فَهَلْ يُثْبِتُ ذَلِكَ عَدَمَ وُجُودِ ذَهَبٍ فِي الْأَسْكَاءِ؟ فَمَا الْمِسَاحَةُ الَّتِي عَلَيْهِ التَّنْقِيبُ فِيهَا فِي الْأَسْكَاءِ لِيُثْبِتَ عَدَمَ وُجُودِ ذَهَبٍ هُنَاكَ؟ الْأَسْكَاءُ كُلُّهَا! أَيُّ كُلِّ مِثْرٍ مُرَبَّعٍ مِنَ الْأَسْكَاءِ. وَمَا مَدَى عُمُقِ أَرْضِ الْأَسْكَاءِ؟ وَإِلَى أَيِّ عُمُقٍ عَلَيْكَ أَنْ تَحْفِرَ حَتَّى تَتَمَكَّنَ مِنَ الْقَوْلِ بِأَنَّكَ نَقَبْتَ فِي الْأَسْكَاءِ كُلُّهَا؟ وَلِنَفْتَرِضْ أَنَّكَ فَعَلْتَ ذَلِكَ، ثُمَّ بَعْدَ مَا فَعَلْتَ كُلَّ مَا يَلْزَمُ، قُلْتَ: "لَقَدْ حَفَرْنَا كُلَّ مِثْرٍ مُرَبَّعٍ فِي الْأَسْكَاءِ، وَلَمْ نَسْتَطِعِ الْعُثُورَ عَلَى جَرَامِ ذَهَبٍ وَاحِدٍ. وَبِذَلِكَ، نَكُونُ قَدْ نَجَحْنَا فِي تَكْذِيبِ ادِّعَائِي وُجُودِ ذَهَبٍ فِي الْأَسْكَاءِ". سَأَجِيبُكَ: "مَهْلًا، كَيْفَ تَأَكَّدْتَ أَنَّكَ حِينَ هَزَزْتَ الْغُرْبَالَ بِالْفُرْبِ مِنْ مَدِينَةِ أَنْكُورِيَجِ، لِتَصْفِيَةِ التُّرَابِ الَّذِي تَفْحَصُهُ، لَمْ تَعْمَلْ عَنْ دَرَّةٍ ذَهَبٍ سَقَطَتْ مِنَ الْغُرْبَالِ؟ مِنَ الْأَفْضَلِ أَنْ تَعُودَ لِفَحْصِهِ ثَانِيَةً". وَيُمْكِنُ الْإِسْتِمْرَارُ فِي فِعْلِ ذَلِكَ إِلَى الْأَبَدِ. بِتَعْبِيرٍ آخَرَ، التَّكْذِيبُ تَجْرِبِيًّا أَصْعَبُ كَثِيرًا مِنْ إِثْبَاتِ صِحَّةِ الشَّيْءِ.

لَكِنَّ الْأَمْرَ يَخْتَلِفُ فِي الْمَنْطِقِ. فَإِذَا انْتَهَكَ تَصْرِيحٌ مَا قَانُونَ التَّنَاقُضِ، يَكُونُ التَّصْرِيحُ أَوْ الْحُجَّةُ خَاطِئَةً دُونَ صُعُوبَةٍ كَبِيرَةٍ. لَكِنْ بِسَبَبِ الْمَشْكِلَةِ الَّتِي تُوَاكِهَنَا مَعَ اللَّهِ، وَهِيَ أَنَّ لَا أَحَدَ رَأَى اللَّهَ قَطُّ، وَأَنَّنَا لَا نَسْمَعُ صَوْتَهُ، وَلَيْسَ لَدَيْنَا أَيُّ دَلِيلٍ عِلْمِيٍّ، إِنْ جَارَ التَّعْبِيرُ، عَلَى وُجُودِهِ، يَكُونُ إِيمَانُنَا بِاللَّهِ مَبْنِيًّا إِذْنًا عَلَى حُجَّةٍ مَنْطِقِيَّةٍ دُونَ أَدَلَّةٍ مَادِّيَّةٍ، أَوْ عَلَى اسْتِنْتِجَاتٍ نَسْتَخْلِصُهَا مِمَّا نَرَاهُ، كَالْكُونِ الْمَخْلُوقِ. فَإِنَّا نَنْظُرُ إِلَى الْكُونِ، وَنَسْتَنْتِجُ مِنْهُ وُجُودَ خَالِقٍ أَعْلَى وَأَسْمَى مِنَ الْكُونِ، هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْكُونِ. وَالسُّؤَالُ هُنَا هُوَ هَلْ هَذَا التَّوَعُّدُ مِنَ التَّفَكِيرِ سَلِيمٌ؟ سَتَنْتَرَقُّ إِلَى ذَلِكَ فِي جُزْءٍ لَاحِقٍ مِنْ هَذِهِ السَّلْسِلَةِ.

لَكِنْ، قَالَ النُّقَادُ وَالشُّكُوكِيُّونَ فِي مُنْتَصَفِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ إِنَّهُ بِسَبَبِ عَدَمِ وُجُودِ أَيِّ دَلِيلٍ مَادِّيٍّ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ، وَبِاتِّبَاعِ الْمَبَادِيءِ الْأَسَاسِيَّةِ لِلتَّحْقِيقِ، تَكُونُ التَّصْرِيحَاتُ عَنِ اللَّهِ عَاطِفِيَّةً فِي أَحْسَنِ أَحْوَالِهَا. أَيُّ إِنَّ اللُّغَةَ عَنِ اللَّهِ مُجَرَّدُ لُغَةٍ عَاطِفِيَّةٍ. فَحِينَ أَقُولُ إِنَّي أَوْمِنُ بِاللَّهِ، لَسْتُ أَقُولُ بِهِذَا كَلَامًا لَهُ مَعْنَى عَمَّا يَقَعُ خَارِجَ نَفْسِي. لَكِنِّي فَقَطُّ أَخْبِرُكُمْ بِشَيْءٍ عَنِ نَفْسِي، وَهُوَ أَنِّي مُؤْمِنٌ، وَأَنَّ لَدَيَّ عَاطِفَةً أَوْ مَشَاعِرَ مُرْتَبِطَةً بِفِكْرَةِ وُجُودِ اللَّهِ. أَخْبَرْتُكُمْ قَبْلًا عَنِ الْحَدِيثِ الَّذِي دَارَ بَيْنِي وَبَيْنَ إِحْدَى الطَّالِبَاتِ بِالْجَامِعَةِ مِنْذُ عِدَّةِ سَنَوَاتٍ، حِينَ سَأَلْتَنِي مَا إِذَا كُنْتُ أَوْمِنُ بِاللَّهِ، فَأَجَبْتُهَا: "نَعَمْ". فَسَأَلْتَنِي: "حَسَنًا، إِذَا كُنْتُ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ، فَهَلْ تُصَلِّيُ إِلَى اللَّهِ؟" أَجَبْتُهَا: "أَجَلٌ". "وَهَلْ تُرْتَمُّ عَنْهُ؟" "أَجَلٌ". "وَهَلْ تَذْهَبُ إِلَى الْكَنِيسَةِ؟" "أَجَلٌ، أَفْعَلُ كُلَّ ذَلِكَ". "وَهَلْ تَقْرَأُ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ؟" "أَجَلٌ". "وَهَلْ يَعْنِي لَكَ ذَلِكَ شَيْئًا؟"

"أجل، هذا يعني لي الكثير". فقالت طالبة: "إذن، بالنسبة إليك، الله موجود". ثم قالت: "لكنني لا أؤمن بالله، ولا أشيد الترانيم، ولا أصلي، ولا أقرأ الكتاب المقدس، ولا أجد لهذه الفكرة أي معنى أو أهمية شخصية بالنسبة إلي". إذن، بالنسبة إلي، الله غير موجود". قطعاً، هذه فلسفة نسبية بلا منازع. فأجبتها: "لكننا لا نتحدث عن الشيء ذاته". فسألني: "ماذا تقصد؟" أجبتها: "حين أؤكد وجود الله، أؤكد وجود كائن موجود باستقلال عني، وخارج نفسي. فهو ليس جزءاً من ذاتي، أو تكويني العاطفي. وأقول إن هذا الإله الذي أناادي به، إذا لم يكن وجوده مستقلاً عني، فكل صلاتي له، وترنيمي، وقراءتي عنه، وإيجاد معنى لحياتي في الإيمان به، كل هذا لا يستطيع أن يخلقه. وأكون ببساطة متوهماً ومخطئاً. في المقابل، الإله الذي أتكلم عنه، إذا كان موجوداً، فكل عدم إيمانك وعدم اكتشافك به، واعتبارك بأنه لا يعني لك شيئاً، لا يفدرك أن يبيده".

هذا ما نتحدث عنه. فلنضع في اعتبارنا أننا عندما نناقش وجود الله، فإننا نتكلم عن الوجود الموضوعي لله، وليس عن مشاعري الشخصية تجاه الأمر. لكن هذه الحركة اللاهوتية والفلسفية قالت إن الكلام عن الله يمكن اختزاله ببساطة إلى عواطف بشرية، وإن التصريحات عن الله لا تقول شيئاً له معنى عن الواقع الموضوعي الموجود خارج الذين يدلون بالتصريحات. هذا توجه شكوكي تجاه وجود الله. وسيكون علي أن أسأل: "ما الذي يكمن وراء ذلك؟"

من الأمور الرئيسية الكامنة وراء ذلك هو الصراع الذي دار في الفلسفة وعلم اللاهوت، في القرنين التاسع عشر والعشرين. في القرن التاسع عشر، وبعد حركة التنوير، شهدنا محاولة كبرى بين الفلاسفة واللاهوتيين لإعادة تعريف الدين، وإعادة تعريف المسيحية التقليدية بصفة خاصة، باستخدام مفردات المذهب الطبيعي. تذكرنا أن أهم تصريح لحركة التنوير في القرن الثامن عشر، أي مبدأ فكر التنوير، هو أن فرضية الله - أو فكرة الله - لم تعد ضرورية لتفسير وجود وأصل الكون، أو أصل الحياة البشرية. فقبل التنوير، حتى العلمانيون أنفسهم كانوا منبهرين للغاية بالحجج التقليدية المؤيدة لوجود الله، باعتبارها مسلمات ضرورية لتفسير الكون، وتفسير الحياة البشرية. و فقط في حركة التنوير، أحدث بديل معقول للخلق تأثيراً على الفكر الغربي، ولا سيما في ألمانيا، وإنجلترا، وفرنسا، بظهور العلماء الفرنسيين.

لم يوافق الجميع في عصر التنوير على هذه المبادئ كلها، وكان العلماء الفرنسيون هم الأكثر تمسكاً بها، ولا سيما ديدرو، الذي عرف نفسه بأنه "العدو الشخصي لله". وقال هؤلاء: "لم نعد بحاجة إلى تأييد وجود الله، لأننا بمجيء العلم الحديث، صرنا نعلم أن الكون والحياة البشرية وكل شيء آخر جاء من خلال التولد التلقائي". أصبح ذلك هو البديل المقبول علمياً للخلق في فكر التنوير، وهو فكرة التولد التلقائي، أي إن الأشياء وجدت فجأة من تلقاء

نَفْسَهَا. فِي جُزْءٍ لَاحِقٍ مِنْ هَذِهِ السِّلْسِلَةِ، سَتَتَنَاوَلُ هَذَا الْمَفْهُومَ بِالتَّفْصِيلِ. لَكِنِّي الْآنَ أَحَاوِلُ تَفْسِيرَ مَصْدَرِ هَذِهِ الْأَزْمَةِ اللُّغَوِيَّةِ.

فِي الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ، وَفِي أَعْقَابِ نَقْدِ فِكْرِ التَّنْوِيرِ لِلإِيمَانِ بِوُجُودِ اللَّهِ - وَكَانَ هَذَا نَقْدًا لِلإِيمَانِ بِمَا هُوَ فَائِقٌ لِلطَّبِيعَةِ - سَعَتِ الفَلْسَفَةُ وَاللَّاهُوتُ فِي الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ إِلَى التَّكْيِيفِ مَعَ هَذَا التَّوَجُّعِ مِنَ الشُّكُوكِيَّةِ، بِإِعَادَةِ صِيَاغَةِ الْمَسِيحِيَّةِ بِمُفْرَدَاتِ الْمَذْهَبِ الطَّبِيعِيِّ. وَبِالتَّالِي، رَفِضَتْ لِيبْراليَّةُ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ كُلَّ مَا هُوَ فَائِقٌ لِلطَّبِيعَةِ فِي الْمَسِيحِيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ، مِثْلَ نُبُوءَاتِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ الَّتِي قِيلَتْ قَبْلَ وَفُوجِ الْأَحْدَاثِ. وَبَعْدَ فَحْصِهَا قَالُوا: "هَذِهِ نِتَاجُ قِيَامِ مُحَرَّرِينَ لِأَحِقِينَ بِإِفْحَامِ ظُرُوفِهِمُ الْمُعَاصِرَةَ عَلَى النَّصِّ. وَبِالتَّالِي، لَا وَجُودَ لِأَيِّ عُنْصُرٍ فَائِقٍ لِلطَّبِيعَةِ، كَالنُّبُوءَاتِ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ". فَرَفِضَ الْمِيلَادُ الْعُدْرَاوِيُّ لِلْمَسِيحِ، لِأَنَّهُ فَائِقٌ لِلطَّبِيعَةِ. وَرَفِضَتْ الْكُفَّارَةُ كَحَدِثٍ كَوْنِيٍّ، لِأَنَّهَا فَائِقَةٌ لِلطَّبِيعَةِ. كَمَا رَفِضَتْ كُلَّ مُعْجَزَاتِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، سِوَاءِ فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ أَوْ الْجَدِيدِ، بِاعْتِبَارِهَا إِضَافَاتٍ أُسْطُورِيَّةً إِلَى الْوَنَائِقِ التَّارِيخِيَّةِ، إِلَى آخِرِهِ. وَرَفِضَتْ قِيَامَةَ الْمَسِيحِ. وَأَصْبَحَ مَعْنَى الْمَسِيحِيَّةِ هُوَ أَنَّ تُحِبَّ قَرِيبَكَ، وَتَضَعِ بَرْنَاجًا لِلْأَعْمَالِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ، عَلَى الصَّعِيدِ الطَّبِيعِيِّ، دُونَ إِيْمَانٍ بِمَا هُوَ فَائِقٌ لِلطَّبِيعَةِ.

هَذَا الْمَفْهُومُ عَنِ دِيَانَةِ ذَاتِ طَابِعٍ طَبِيعِيِّ، اقْتَرَنَ أَيْضًا بِالْفَلْسَفَةِ فِي الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ، الَّتِي كَانَتْ ذَاتَ طَابِعٍ تَطَوُّرِيٍّ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ، وَهُوَ مَا يُدْعَى "الْحُلُولِيَّةَ"، بِمَعْنَى أَنَّ اللَّاهُوتَ الَّذِي سَادَ هُوَ وَحْدَهُ الْوُجُودِ. يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ أَسْمَى مِنَ الْكُونِ، وَإِنَّمَا إِذَا كَانَ اللَّهُ مَوْجُودًا، فَهُوَ جُزْءٌ مِنَ الْكُونِ. نُدْرِكُ أَنَّ مَذْهَبَ وَحْدَةِ الْوُجُودِ فِي أَبْسَطِ صُورِهِ يَعْنِي أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ هُوَ اللَّهُ. فَالْكُلُّ هُوَ اللَّهُ، وَاللَّهُ هُوَ الْكُلُّ. فَكَّرُوا فِي الْأَمْرِ لَعُوبًا. لَوْ كَانَ كُلُّ شَيْءٍ هُوَ اللَّهُ، وَاللَّهُ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ، فَكَلِمَةُ اللَّهِ نَفْسُهَا لَنْ تُشِيرَ إِلَى شَيْءٍ مُحَدَّدٍ. فَلَوْ كَانَتْ تُشِيرُ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ بِوَجْهِ عَامٍّ، لَنْ تُشِيرَ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ بِوَجْهِ خَاصٍّ. وَبِالتَّالِي، لَنْ يَكُونَ لِكَلِمَةِ "اللَّهِ" مَعْنَى أَوْ مَدْلُولٌ خَاصٌّ. وَبِهَذَا الْمَفْهُومِ الْحُلُولِيِّ، تَنْشَأُ أَرْزَمَةٌ لَعُوبِيَّةٌ، تَتَعَلَّقُ بِمَا إِذَا كَانَ بِإِمْكَانِنَا قَوْلُ أَيِّ شَيْءٍ لَهُ مَعْنَى عَنِ اللَّهِ.

أَحْدَثَ ذَلِكَ أَرْزَمَةً فِي الفَلْسَفَةِ وَاللَّاهُوتِ. وَفِي مَطَلَعِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ، نَشَأَ فِي أَوْرُوبَا رَدُّ فِعْلٍ مُضَادٍّ لِلِيبْراليَّةِ، فِي مُحَاوَلَةٍ لِاسْتِعَادَةِ تَسَامِي اللَّهِ، أَيِّ سُمُو اللَّهِ عَلَى الْكُونِ وَعَلَى مَجْرَى التَّارِيخِ. وَهَذِهِ الْمُحَاوَلَةُ مِنْ جَدِيدٍ لِتَحْرِيرِ الْمَسِيحِيَّةِ مِنَ الِيبْراليَّةِ، وَإِعَادَةِ مَا هُوَ فَائِقٌ لِلطَّبِيعَةِ إِلَيْهَا، فَعَلَتْ مَا يُفْعَلُ عَادَةً فِي آيَةِ مُحَاوَلَةٍ لِتَصْحِيحِ خَطَأٍ، حَيْثُ يَمِيلُ الْبَنْدُولُ نَحْوَ الظَّرْفِ الْآخَرِ بِإِفْرَاطٍ. وَبِهَذَا، خَرَجَ الْفَلَسَافَةُ وَاللَّاهُوتِيُّونَ الَّذِينَ تَحَدَّثُوا عَنِ تَسَامِي اللَّهِ بِلُغَةٍ مِثْلِ: "أَنَّ اللَّهَ آخَرُ، وَأَنَّ اللَّهَ مُخْتَلِفٌ تَمَامًا عَنِ الْكُونِ. فَلِلْهُرُوبِ بِقُوَّةٍ وَسُرْعَةٍ مِنْ مُسَاوَاةِ اللَّهِ بِالْكَوْنِ، كَمَا فَعَلَ مَذْهَبُ وَحْدَةِ الْوُجُودِ، نَقُولُ إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ فَقَطْ مُخْتَلِفًا عَنِ الطَّبِيعَةِ، وَلَيْسَ فَقَطْ يَسْمُو عَلَى الطَّبِيعَةِ، لَكِنَّهُ مَوْجُودٌ فِي سُمُو مُطْلَقٍ عَلَى الطَّبِيعَةِ. وَهُوَ لَيْسَ فَقَطْ مُخْتَلِفًا عَنَّا، لَكِنَّهُ، كَمَا قَالَ الْفَيْلَسُوفُ الْأَلْمَانِيُّ: "عَائِزٌ أَنْدِرَا"، أَيُّ مُخْتَلِفٌ كَلِيَّةً. وَبِالتَّالِي، وَصَفَتْ

الأجيال التالية لله بأنه آخر. هذه المحاولة لإنقاذ نسامي الله، بقدر حُسن نيتيها، مهَّدت السبيل لأزمة أسوأ تتعلَّق بِلُغة الكلام عن الله، أسوأ حتى مما سببته الحركة السابقة. وسنرى كيف حدث ذلك في مُحاضرتنا القادمة.

الدكتور آر. سي. سبرول هو مؤسس هيئة خدمات ليجونير، وكان أحد رعاة كنيسة القديس أندرو ( St. Andrews Chapel ) في مدينة سانفورد بولاية فلوريدا، كما كان أول رئيس لكلية الكتاب المقدس للإصلاح ( Reformation Bible College ) وهو مؤلف أكثر من مائة كتاب، بما في ذلك "كلنا لاهوتيون" و"أدهشني الألم".